

مبادئ الديالكتيك المادي

ليون تروتسكي

15 ديسمبر 1939

الديالكتيك ليس خيالا ولا تصوفا، ولكنه علم أشكال تفكيرنا في حدود أبعد لأنه ليس مقتصرًا على المشاكل اليومية للحياة ولكنه يحاول الوصول إلى فهم عمليات أكثر بعدا وتعقيدا. الديالكتيك والمنطق الصوري يشكلان علاقة كذلك التي بين الرياضيات العالية والبسيطة.

سأحاول هاهنا أن أرسم جوهر المشكلة بشكل شديد الاختصار. المنطق الأرسطي الخاص بالقياس المنطقي البسيط يبدأ من الافتراض بأن "أ" تساوي "أ". هذه المسلمة تقبل كبدئية للعديد من الفعاليات الإنسانية العملية والتعميمات البسيطة.

لكن في الواقع "أ" لا تساوي "أ". هذا سهل الإثبات لو أننا لاحظنا هذين الحرفين من خلال عدسة. إنهما مختلفان عن بعضهما البعض. لكن هناك من يقر بأن حجم وشكل الحرفين ليس هو المسألة مادام مجرد رمزان لكميات متساوية. على سبيل المثال رطل من السكر. الإعتراض هنا خارج القصد، في الواقع رطل من السكر لا يساوي رطلا من السكر. مقياس أكثر دقة يكشف عن فرق.

مرة أخرى ربما يعترض أحدكم "ولكن رطل السكر يساوي نفسه". ولا هذه حقيقة أيضا. فكل الأجسام تتغير بلا إنقطاع في الحجم والوزن واللون... إلخ. ليست مساوية لنفسها أبدا. سيرد السفسطائي قائلا "إن رطل السكر مساو لنفسه في لحظة محددة من الزمن".

بعيدا عن القيمة العملية المشكوك فيها بشدة لهذه "البديهية" فإنها لا تستطيع الصمود أمام النقد النظري أيضا. إذ كيف يمكن أن نتقبل حقيقة كلمة "لحظة" ؟ إذا كانت هي فاصلة متناهية الصغر من الزمن. إذن فرطل السكر سيتعرض خلال سير اللحظة إلى تغيرات حتمية. أم أن "اللحظة" هي فقط تجريد رياضي خالص، أي صفر من الزمن ؟ ولكن كل شيء يوجد في الزمن. والوجود ذاته هو عملية غير متقطعة من التحول. فالزمن بالتالي عنصر أساسي للوجود. ولهذا فالبدئية "أ" تساوي "أ" تشير إلى أن الشيء يساوي نفسه إذا لم يتغير، وهذا في حالة عدم وجوده.

للهولة الأولى قد يبدو أن تلك الأشياء الدقيقة عديمة الفائدة. في الواقع هي ذات أهمية بالغة. البديهية "أ" تساوي "أ" تبدو من جهة نقطة إنطلاق لكل معارفنا. ومن جهة أخرى كنقطة إنطلاق لكل الأخطاء في معارفنا. لكي نحقق إستفادة من البديهية "أ" تساوي "أ" بدون الوقوع في الخطأ سيكون هذا ممكنا فقط داخل حدود معينة. عندما تكون التغيرات الكمية في "أ" من الممكن إهمالها بالنسبة للمهمة المؤداة عندئذ يكون من الممكن التسليم إفتراضيا بأن "أ" تساوي "أ"، هذه على سبيل المثال هي الطريقة التي يأخذ بها كل من البائع والمشتري رطل من السكر بعين الإعتبار. نحن ندرس حرارة الشمس بشكل مماثل، وحتى نتوصل إلى دراسة القوة الشرائية للدولار بنفس الطريقة. لكن التغيرات الكمية لما بعد حدود معينة تتحول إلى تغيرات كيفية (نوعية). فرطل من السكر معرض لفعل الكيوسين ينتهي وجوده كرطل من السكر (يتوقف عن كونه رطل من السكر). ودولار في قبضة رئيس يتوقف عن كونه دولارا.

إن تحديد النقطة الحرجة التي يتغير عندها الكم إلى كيف في اللحظة الصحية هي واحدة من أهم وأصعب المهام في كل حقول المعرفة بما فيها علم الاجتماع.

كل عامل يعرف أنه من المستحيل صناعة شيئين متماثلين ومتساويين تماما. في عملية تفصيل النحاس كمحامل مخروطية، يسمح بانحراف معين للمخاريط والذي مع ذلك لا يجب أن يتعدى حدودا معينة (هذا يسمى السماحية). وعن طريق ملاحظة نماذج السماحية، تعاد القوالب متساوية ("أ" تساوي "أ")، وعندما تزداد السماحية يتحول الكم إلى كيف، بكلمات أخرى تصبح المحاميل المخروطية رديئة وعديمة القيمة.

تفكيرنا العلمي هو فقط جزء من ممارستنا العامة بما فيها التقنيات. بالنسبة للمفاهيم هناك (التحمل) الذي لم يؤسس تبعا للمنطق الصوري للبدئية ("أ" تساوي "أ")، ولكن عن طريق المنطق الديالكتيكي المنبثق من بدئية أن كل شيء يتغير. "المنطق المشترك" يوصف بحقيقة أنه بتلقائية يتعدى "السماحية" الديالكتيكية.

يتعامل الفكر الدارج مع مفاهيم مثل الرأسمالية، الأخلاق، الحرية، دولة العمال، إلخ...، على أنها تعميمات ثابتة، مسلمين بأن الرأسمالية تساوي الرأسمالية، الأخلاق تساوي الأخلاق، إلخ. إن التفكير الديالكتيكي يحلل كل الأشياء والظواهر في تغيرها المستمر، بينما يحدد في الظروف المادية لتلك التغيرات ذلك الحد الحرج حيث "أ" تتوقف عن كونها "أ". ولا تكون دولة العمال هي دولة العمال.

الخلل الأساسي في الفكر الدارج يقع في حقيقة أنه يتمنى أن يقنع نفسه بسمات ساكنة لواقع يتكون من حركة أبدية. التفكير الجدلي يعطي المفاهيم، عن طريق تقريبات وتصحيحات وأمثلة ملموسة مرونة وثراء للمحتوى. وقد أقول أيضا نضارة والتي إلى حد ما تجعلها (المفاهيم) أقرب لظواهر الحياة. ليست الرأسمالية بالتعميم، ولكن رأسمالية معطاة (محددة) في مرحلة معطاة (محددة) من التطور. ليست دولة العمال بالتعميم ولكن دولة عمال معينة في بلد مختلف في محيط إمبريالي، إلخ.

يرتبط التفكير الجدلي بالتفكير الدارج بنفس الطريقة التي ترتبط بها الصورة المتحركة بالصورة الفوتوغرافية الساكنة. الصورة المتحركة لا تبطل الصور الفوتوغرافية ولكن تكون منها متوالية تبعا لقوانين الحركة. لا ينكر الديالكتيك القياس المنطقي، ولكن يعلمنا أن نجمع القياسات المنطقية بطريقة تقرب فهمنا من الواقع الأبدي التغير. وقد أسس هيجل في منطقته متتالية من القوانين: تغير الكم إلى كيف، التطور من خلال التناقض، نزاع المحتوى والشكل، إعتراض الإستمرارية، تغير الإمكانية إلى حتمية، إلخ. والتي هي مهمة بالنسبة للفكر النظري كما المنطق البسيط بالنسبة للمهام الأكثر بساطة.

كتب هيجل قبل داروين وقبل ماركس بفضل الدفع القوي الذي أعطته الثورة الفرنسية للفكر. لقد توقع هيجل الحركة العامة للعلم. ولكن لأنه كان مجرد توقع، رغم عبقريته، فقد كان هيجل شخصية مثالية. تعامل هيجل مع الظلال الأيديولوجية مثل الواقع المطلق (الأقصى). لقد برهن ماركس على أن حركة هذه الظلال الأيديولوجية لم تعكس شيئا سوى حركة الأجسام المادية.

نحن ندعو ديالكتيكنا مادي طالما أن جذوره ليست في السماء ولا في عمق "إرادتنا الحرة"، ولكن في الواقع الشئني، في الطبيعة. وينشأ الوعي من اللاوعي، علم النفس من علم وظائف الأعضاء، العالم العضوي من العالم

غير العضوي، النظام الشمسي من السديم. على كل درجات هذا السلم من التطور، تحولت التغيرات الكمية إلى كيفية. وفكرنا بما فيه الفكر الديالكتيكي هو فقط واحد من أشكال التعبير عن المادة المتغيرة. هناك مكان داخل هذا النظام لكنه ليس الشيطان والروح الخالدة والنماذج الأبدية للقوانين والأخلاق. لقد نشأ ديالكتيك التفكير، من ديالكتيك الطبيعة وهو يكتسب بناء على ذلك شخصية مادية تماما.

لقد كانت الداروينية، التي فسرت نشوء الأنواع خلال تحولات كمية مرورا بكيفية كانت، أكبر إنتصار للديالكتيك في حقل المادة العضوية. أنتصار آخر كان إكتشاف جدول الاوزان الذرية للعناصر الكيميائية وأيضا تحول العنصر إلى آخر.

بهذه التحولات (الأنواع، العناصر، إلخ.) ترتبط بشدة قضية التصنيف، بنفس الأهمية في العلم الطبيعي كما في الاجتماعي. فنظام - لينو- (القرن الـ18)، الذي يستخدم نقطة إنطلاقه ثبات الأنواع، كان مقصورا على توصيف وتصنيف النباتات تبعا لأوصافها الخارجية. إن فترة طفولة علم النبات (فترة نشوئه) تشابه فترة طفولة المنطق، بما أن أساليب تفكيرنا تتطور كأى شيء حي. فقط الرفض الحاسم لفكرة الأنواع الثابتة، فقط دراسة التاريخ الخاص بنشوء وتطور النباتات وتركيبها البنيوي، أعدا الأسس لتصنيف علمي حقيقي. إكتشف ماركس الذي كان على خلاف داروين ديالكتيكيا واعيا أسس التصنيف العلمي للمجتمعات الإنسانية في تطور قواها الإنتاجية وبنية علاقات الملكية التي تؤلف التركيب البنيوي للمجتمع.

أحلت الماركسية محل التصنيف الوصفي الدارج للمجتمعات والدول، والذي مازال حتى الان مزدهرا في الجامعات، تصنيف ديالكتيكي مادي. فقط من خلال طريقة ماركس من الممكن أن نحدد بدقة كلا من مفهوم دولة العمال ولحظة سقوطها.

لا يحتوي هذا كما نرى على اي شيء "ميتافيزيقي" أو "لاهوتي" كالذي يقر به الجهل المغرور. إذ يعبر المنطق الديالكتيكي عن قوانين الحركة في فكر علمي معاصر. وإن الكفاح ضد الديالكتيك المادي يعبر على العكس عن ماض بعيد، عن البرجوازية المحافظة الضيقة الأفق، عن التصور الخاص لروتيني الجامعة و... وشرارة من الأمل للحياة الآخرة.